

- المحاضرة الأولى: مدخل مفاهيمي إلى السرديات العربية الحديثة والمعاصرة

مقدمة:

يعدّ التقعيد للمصطلح والتأسيس للمفهوم في أي بحث علمي ضرورةً إبستمولوجية، وهدفًا رئيسًا يعتمد إليه الباحث في رصد المعالم التي يبين في ضوءها ماهية ما سيشتغل عليه، بل ويصبح هاجسه المعرفي الذي تقتضيه دواعٍ ذاتية وموضوعية، باعتباره المحدّد الرئيس للأطر التي سيستند إليها البحث الضابط لمساره، والدافع به نحو ما يرومه.

وللتّوصل إلى أهداف مناسبة تتماشى وطبيعة ما سنشتغل عليه من مادة علمية في هذا السّداسي تقتضي المنهجية الانطلاق من عنوان المقياس ذاته "السرديات العربية الحديثة والمعاصرة" تفكيكا وتفسيرا وذلك للتعرف على أهم ما يتضمنه من بؤر دلالية رئيسية من شأنها أن نستشف من خلالها المعالم الكبرى التي تنبني عليها مادة المقياس والحدود المعرفية التي تؤطرها.

يتشكّل عنوان المقياس من مركزين دلاليين "السرديات العربية" / "الحديثة والمعاصرة"؛ حيث تشير الأولى بحسب السياق العام الذي وضعت فيه إلى المادة المدونة التي سيتعرف عليها الباحث الطالب ويشتغل عليها، أما الثانية فتحيل إلى الفترة الزمنية التي تؤطر هذه المادة، وفيما سيأتي تفصيل مفاهيمي.

في مفهوم السرد

لضبط مفهوم واضح لمصطلح السرد يستلزم البحث العودة إلى المعاجم والقواميس اللسانية العربية أولا للتعامل مع المفردة كما وردت فيها، لما لذلك من أهمية بالغة في تمكيننا من الوقوف على دلالاتها على النحو الذي قد رسمه لها أهلها، قبل تتبع مسارها الدلالي الذي تطورت عبره، وما باتت تعنيه في رحلتها التطورية في غيرها من المؤلفات والتي إن نأت فيها عن بعض استخداماتها الأولى لن تنأى عن وجهه من الأوجه الدلالية التي رسمها لها العربي في أول عهدٍ له بها.

ورد في (لسان العرب) بأنّ السرد هو تقدمه شيء إلى شيء تأتي به متمسماً بعضه في أثر بعض متتابعاً. سرّد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه. وفلان يسرد الحديث سرّداً إذا كان جيد السياق له. وعليه يقال "سرّد القرآن تابع قراءته في حذرٍ منه (...) وسرّد فلان الصّوم إذا والاه وتابعه⁽¹⁾،

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، (دت)، مج 03، مادة سرد، ص: 212.

أما في (معجم العين)؛ فقد أورد فيه الفراهيدي تحت مادة سَرَدَ: "سَرَدَ القراءة والحديث يسرده سردا أي يُتابع بعضه بعضا، والسردُ جامع للدروع ونحوها من عمل الخلق، وسُمي سرداً لأنه يسرد فيثقب طرفا كل حلقة⁽²⁾، بمسما (بشكل متساو ودقيق)، فذلك الخلق المسرد" المنسوج بانتظام وتتابع وترتيب هو ما يشكّل الدرّع في الأخير.

من خلال هذا التّوصيف اللّغوي للمفردة حسب المعاجم العربية يمكن القول بأنّ السرد يقتضي بالضرورة دلالة التّتابع والانتظام، وحضوره الاصطلاحي يقتضي ضرورة هذه المدلولات، وكأني لفظة عربية تحمل مخزونا ثقافيا ثريا وقدرة على المطاوعة الدّلالية، فقد اتسع استخدامها العربي ليشمل كلّ مجال يتوافر فيه التّراتب والنّسج والنّظم والتّتابع.

أما من النّاحية الاصطلاحية؛ يوظّف - مصطلح السرد - بدلالات مختلفة بحسب مجال الاستخدام ليقى "السياق الذي يستعمل فيه هو الخلق بضبط المعنى الدقيق الذي يعنيه"⁽³⁾، فهو من منظور لفظيّ هو: "النشاط السردّي الذي يضطلع به الراوي، وهو يروي حكايته ويصوغ الخطاب الناقل لها⁽⁴⁾، وهو من زاوية الخطاب: طريقة مخصوصة في تقديم الحكّي، أمّا من ناحية الصّناعة، فهو يأخذ دلالة أوسع وأشمل، يطلق فيها: "على كلّ ما يتعلّق بالقصص فعلا سرديا أو خطابا قصصيا أو حكاية"⁽⁵⁾، وهي الدّلالة المقصودة تحت عنوان هذا المقياس الذي وردت فيه اللفظة بصيغة الجمع (السرديات العربية الحديثة والمعاصرة).

في مفهوم لفظي الأدب العربي "الحديث والمعاصر"

الحديث عن لفظي "الحديث والمعاصر" سيقود حتما إلى حضورهما في كثير من الفروع المعرفية الإنسانية الأخرى، كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم التّربية، وهي جميعا تتنازع في دلالة الاصطلاحين، وتقدّم في المسألة كثيرا من الآراء ووجهات النّظر، بحسب الموقع والتخصّص، وهي الآراء التي يمكن أن نجملها في قسمين رئيسين هما:

²- الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي الخزومي والسامرائي، دار الهلال، القاهرة - مصر، (دت)، ج07، مادة: سرد. ص: 226.

³- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ط1، 2010، ص: 246.

⁴- المرجع: نفسه. ص: 243

⁵- المرجع: نفسه. ص: 243.

الرأي الأول: لا يرى أصحاب هذا الموقف أي فرق بين الحديث والمعاصر، فهما بالنسبة إليهم مصطلحان بدلالة واحدة، مترادفان، تخلقا بطريقة عفوية لمسمى زمني واحد، يبدأ بدخول نابليون بونابرت مصر سنة 1798 إلى غاية يومنا هذا.

الرأي الثاني: يذهب أصحاب هذا الموقف إلى القول بأنّ "الحديث" يبدأ من حملة نابليون على 1798 وفي هذا يتفقون مع أصحاب الرأي الأول وينتهي بنكبة 1948م، ليبدأ عصر أدبي جديد واكب مستجدات ما بعد النكبة، وهو ما أكسب نصوص الأدب التي لم تخرج عن سياقات إنتاجها الجديدة خصائص فنية مغايرة جعلتها تدخل حيزا زمنيا جديدا حمل لفظة ودلالة المعاصرة.

وقبل مباشرة الحديث عن السرديات العربية الحديثة والمعاصرة؛ وجب التعرّيج على السرد العربي القديم وأهمّ خصائصه، من منطلق إيماننا بتواجد الظاهرة في متون التراث الأدبي العربي، وأنّ هذا التواجد شكّل لبنة في تشييد سرود حديثة ومعاصرة، إلى جانب فعل المثاقفة الذي لا يمكن هو الآخر تهميشه. فما المقصود بـ "السرد العربي"؟ وما هي خصائصه؟

خصائص السرد العربي القديم

"السرد العربي" هو الملفوظ الناظم الذي يجمع كلّ الفنون الحكائية العربية التي رهنها فعل القصّ الأشكال واحتل فيها الراوي موقعا هاما في تقديم المادة الحكائية⁽⁶⁾، وتحتّه تنتظم مجموعة كبيرة من السردية التي نذكر من قديمها العربي: الأسمار، والحكايات الطرائف القصص، الأيام، السير، المغازي، النوادر المقامات، السرد الصوفي وغيرها من المنجزات التي تخلّقت بحرف عربي في حقب زمنية مختلفة. والملاحظ أنّ كلّ "التسميات السابقة كانت محدودة وضيقة عن الشمول أو كانت تحكمها رؤى خاصة، وهذا ما جعلها غير دقيقة عكس المفهوم الجامع (السرد). إنه يرصد الظاهرة في مجملها، ويسعى إلى الإحاطة بمختلف حيثياتها وملابساتها. ويغدو تبعا لذلك قادرا على جعلنا في إطار توظيفه التوظيف المناسب. لفهم الظاهرة بصورة أحسن وأوضح"⁽⁷⁾.

⁶- ينظر: سعيد يقطين، السرد العربي، مفاهيم وتجليات دار رؤية القاهرة - مصر، ط1، 2006م.

⁷- المرجع نفسه، ص: 67.

تتفق الدراسات العربية المتأخرة على أنّ الخزانة العربية السردية مصدر معرفي وفني لا تنضب عطاءاته، وهو ما يلزم بالعودة إليه والبحث فيه بشكل دائم ومستمر وإنزاله المنزلة التي يستحقها، لأنه مع ما أثاره من انتباه الدارسين منذ عصر النهضة بقي رافدا للعديد من الرؤى والمفاهيم التي تعكس مكانته وصيرورته الثقافية والإقرار بأنه الديوان الحقيقي للعربي من طرف كثير من النقاد، أو "القول بأنه الديوان المزاحم للشعر على الصعيد الواقعي خير دليل على ذلك".⁽⁸⁾

إنّ عودة كثير من الباحثين إلى السرد العربي القديم، وبخاصة حين عملية التأصيل للنصوص المعاصرة على اختلافها، يعكس مكانة التراث السردية، ولعل الحفاظ على كثير من الخصائص السردية المتقدمة كافٍ لإثبات ذلك، وهو ما جعل نصوصا عربية قديمة [بخصوصياتها] تصل "إلى وعلى درجة سامية من الإبداع الإنساني الرفيع"⁽⁹⁾، فرسمت بذلك نصوصا فوق العادة نحو ألف ليلة وليلة / كليلة ودمنة بصورتها العربية البخلاء / رسالة الغفران المقامات باختلاف مستوى العالمية مؤلفيها ...، ومن هذه الخصائص التي أخذت صفة الديمومة، نذكر:

1- الاهتمام بالمهمش: هي ركيزة نصية تحسب للنتاج السردية العربي القديم، إذ استطاع أن ينطلق من لوثة الحياة بسياقاتها المختلفة لينتج دلالاته، فأخرج لجمهور القراءة محلياته، معبرا عن كل ما يتضمنه اليومي، مقدما شخصياته بدلالاتها الإنسانية، فتبدى بذلك سرد خاص بالبخلاء وآخر بالفقراء، وآخر يروي تجارب الرحالة، وأخبار الثائرين وقصص المجانين، وغيرها من الخطابات.

عجائبية السرد قامت بعض النصوص السردية العربية القديمة في بناء مضامينها السردية على الخارق وغير المعقول، فتأتت بدلالات رمزية تنضح بالأسرار، ومن ذلك رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، التوابع والزوابع لابن الشهيد ألف ليلة وليلة وبعض النصوص التي اتسمت بالصوفية (...). وقد كان للعجائبية الأثر الكبير في نصوصنا السردية الحديثة والمعاصرة، نحو ما نجده في أعمال حلیم بركات والظاهر وطار وإميل حبيبي.

2- التصريح بالمخفّض: يبني النص السردية القديم بناءً على مخفّضات خارجية [أي بطلب أو حاجة خارج نصية / تلبية لرغبة طالب للحكي] مثلما نجده في الامتاع والمؤانسة حين طلب أبو الوفاء المهندس من أبي حيان التوحّيدي وصف مجالس أنس الوزير بن سعدان، وقد يبني النص انطلاقا من مخفّضات

⁸ - المرجع السابق، ص: 70.

⁹ - المرجع السابق، ص: 71. ص: 86.

داخلية أي بطلب من شخصية من شخصيات النص على النحو الذي نجده في ألف ليلة وليلة حين طلب شهریار من شهرزاد تقديم الحكی.

اعتماد نظام إسناد الرواية: يسند الراوي فعل الحكی إلى طرف آخر، غالباً ما يكون اقتراضياً للتححرر من قيود الحكی، واستقطاب المتلقي وإيهامه بالحقیقة، ولذلك نجد أن الحكی القديم عادة ما يستهل به "بلغني أو زعموا".

استخدام السرد العنقودي: ويتجلى ذلك في كثير من النصوص، أبرزها "ألف ليلة وليلة"، حيث يعتمد الراوي إلى خلق قصة إطار قصة شهرزاد و شهریار تستوعب قصصاً قصيرة تشكل أطراف الحكی، لتنظم وتناسل بحسب متواليات القصة الإطار، وهذا النوع من الحكی نجد له كبير الأثر في الروايات المعاصرة من مثل ما سبك به نص أوان القطاف" للمصري محمود الورداني. إدراج الوصف والحوار احتفت النصوص السردية العربية القديمة كثيراً بالوصف والحوار، فوظفتها بشكل لافت، باعتبارها ركيزة لغوية، وإضافةً دلالية.

بعد هذا الفرش النظري الذي حاول بسط بعض المفاهيم السردية التي يحيل إليها عنوان المقياس سيحاول فيما سيأتي تحت العناوين الفرعية المشكلة لعناوين الدروس المقررة رسم الأطر العامة للسرديات العربية الحديثة والمعاصرة، من خلال الرواية أولاً، باعتبارها مركزاً سردياً له اتجاهاته العربية الخاصة (التاريخي الواقعي الوجودي النفسي)، ومضامينه المميزة (الصراع الحضاري البعد الإيديولوجي / توظيف التراث)، وانبثاقاته السردية من خلال عنصر اقتضائي مهم (المكان)، لنعرج على النصوص المسرحية والنصوص القصصية القصيرة وما تتضمنه من تشكيلات ودلالات سردية، لنختم مسار المقياس بإشكاليتين مهمتين لهما وقعهما في الخطابات النقدية اليوم هما: (خصائص السرد النسوي / وحضور العجائبي على مستوى النصوص السردية العربية الحديثة والمعاصرة).